المقدمة

المطر الماء المنسكب من السماء، والمطر ماء السحاب، والجمع أَمطار وأكثر ما يجیء فی الشعر، وقد مطرتهم السماء تَمْطَرهم مطراً، وأمطرتهم: أصابتهم بالمطر. (ابن منظور، ۱۹۸۳م: مادة مطر)

والمطر هو أساس الحياة والخلق والخير والرحمة للعباد، وقد ورد ذكره بكثرة فی القرآن الكريم بلفظ الماء والغيث مصدرا للفوائد الكثيرة قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِی بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ (الروم: ۲۴) ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً﴾ (الفرقان: ۴۸) ﴿وَهُوَ الَّذِی يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ (الشورى: ۲۸)

وقد أكثر العرب من استخدام المطر على الحقيقة فی أمثالهم المنوعة، فقالوا لِمن خاف فی رخاء ورغد فظن أن الناس كلهم فی مثل حاله: «يحسَبُ الممطور أنّ كلاً مطر.» (الميدانی، ۱۹۵۵، ج۲: ۴۱۷) وقالوا لمن حزن على ما فاته: «لا تَشِم الغيث فقد أودى النقدُ.» (نفس المصدر، ج۲: ۲۴۵) وقالوا لمن له ثروة ولايجدی على أحد: «ظلال صيف ما لها قِطارُ.» (نفس‌المصدر، ج۱: ۴۴۵)

وذكر العرب للمطر فی أمثالهم نابع من عشقهم له، فهو مبعث الحياة الخصب وبه حصول معايشهم من رعی وسقی وزرع، لذلک عرفوا خصائصه وأحواله واستدلوا على نزوله بالرياح وألوان السُحب، وأنواع البرق وأصوات الرعد ونَمی لديهم علم كثير وغزير عنه، وقد ورد فی كلامهم المنثور والمنظوم ما يشير إلى رسوخ هذا العلم، وعمق هذه المعرفته التی نتجت عن طول تجاربهم اليومية المستمرة.

وروى أبوحاتم عن أُبی عبيدة قال: «قلت لأعرابی ما أَسَحُّ الغيث؟ فقالَ: ما أَلْقَحته الجنوبُ ومرتهُ الصَّبا ونَتجَتهُ الشمال. ثم قال أهلک والليل، ما يرى إلا أنه قد أخذه المطر.» (ابن دريد، ۱۹۶۳م: ۶۲)

ويشهد على علم العرب الواسع بالمطر ما خلفّوهُ من ثروة لغوية تفسر عمومه وخصوصه، وشدته وضعفه، وغزارته، ودوامه وتتابعه... إلى المسميات الكثيرة التی تبين أنواعه وأحواله، ومن هذه المسميات:

التراث الأدبی ـ السنة الثانية ـ العدد السابع

۱. الأمطار العامة: مثل الغيث، القَطْر، السماء، الجَدا، الخَرج، الوَدق، السَّبل، الصَّوب، الذِّهاب، الغَير، النّصر، الرَّجْع، الماعون، جارُّ الضَّبع، الثلة، الطَبَق، الطَّفل، الوَكيف، النُزل، الخدر، الحيا.

۲. الأمطار الموسمية: مثل الوَسمی، الوَلّی، الشَّتی، الدفئی، الصَّيف، الحميم، الرمضی، الخريق.

۳. الأمطار الشديدة: مثل الحريصة، الحِمِرّ، الساحِية، العَجارِف، المُحتَفَل، القاعِف، القَشْرَة، البَغر، الرّاضِب، السادِحَة، السَّحّ، السَّحيفَة.

۴. الأمطار الضعيفة: مثل الرَشّ، الطَّلّ، الرَّذاذ، النَّضْح، النَّضْخ، البَغش، البطشّ، القطقط، الغَبية، الخَطْرَة، الشَمل، الشَّفيف، الهَدْمَة، الدَّثة، الدَّهان، الشَّحْذة، الضَّرب، الضَّعيف، الرَمَل، الهَمِيمَة، التلبِيد، الحَشَكة، الحَفشَة، الخَبْطَة، الرِّک، المرْزع، النّدی، النَّضِيضَة.

۵. الأمطار الكثيرة: مثل الوابل، الجَوْد، الأَهاضيب، البوق، الجلباب، الجوَرّ، الدَّجْن، الشُؤْبؤب، الطوفان، العُباب، العُراق، العَدْر، العِزّ، الغِدق، الفتح، النجو، البُعاق، السحاب، التهتان، الهتلان، الهثهثة.

۶. الأمطارالدائمة: مثل الدِّيمة، الرِّهمة، الوَطفاء، الإلثاث، الإعضان، الهَفاء، العَين، الهَطْل.

۷. الأمطارالمتتابعة: الدّرار، الرّثان، الرَّصدَة، العَهْد، اليعلول. (الأنصاری، ۱۹۱۰م: ۱۵-۱۴؛ النويری، ۱۹۲۹م، ج۱: ۷۷-۷۴)

وكان للشعراء وقفات طويلة مع المطر دفعهم إلى ذلك ما يعشرون به نحوه من حُب ونشوة وغبطة ورغبة ورهبة، لذلک تتبعوا نزوله فی دقة وعناية منذ أول بدء له حتی ينزل سيولا تغطی الآكام والوهاد، فوصفوه وصفاً دقيقاً، ورسموا له صوراً رائعة ترصد جميع مراحل تكونه، وهو سحاب يتجمع فی قبّة السماء، والرياحُ التی تلحقهُ وتحمله، والبرق المُشتعل فی أرجائه، والرعد المجلجل فی نواحيه، والأماكن التی تستقبلُه وتنعم بهطوله، والآثار التی يخلفها علی الحياة، فهو دائماً ينزل فی صورة سيول عاتية تقتلع الأشجار الضخمة، وتنزل العصم من رؤوس الجبال، وتغرق الضباع والسباع، ولكنّه يخلّف بعد ذلک الخيرَ والخصب، فتخضَرُّ الصحراء وتينعُ أزهارها ونباتاتها، وتغرّد أطيارها، وتنق

ضفادعها نشوةً وفرحاً.

وقد اتبع الشعراء فی وصفهم للمطر بعض الأسس التی وضعها السابقون وتداولها اللاحقون. ویمکن تلخیصها فی الموضوعات التالیة: کمناجاة الصاحب والرفیق، والسهر والأرق لمشاهدة البرق، ووصف عوامل خلق المطر من ریاح وسحاب ورعد وبرق، وعملیة نزول المطر فی اندفاعه وغزارته واشتداده، وآثار المطر علی الطبیعة وکائناتها، والدعاء بالسقیا للأحِبَّة ودیارهم.

ووضع شعراء العرب فی وصف المطر وتشبیهاته أسساً وألموا بذکره فی أشعارهم إلماماً واسعاً ومن هؤلاء الشعراء امرؤالقیس وعبید بن الأبرص.

فامرؤالقیس ذلک الشاعر المبدع، فقد أقام بنیاناً قویاً لصورة المطر، وأکثر مِن وَصْفه فی دیوانه وتغنی بصفاته حتی عدّه النقاد والشعراء: «من أجود الذین وصفوا المَطر.» (العسکری، ۱۳۵۲ق: ۴-۳؛ ابن سلام، ۱۹۷۴م، ج۱: ۹۴) فقد کان مبرزاً فی هذا المجال لأنه کان یصفه بحرارة عاطفته وصدق أحاسیسه وحبّه له. ففی معلقته الشهیرة یقدم مشهداً کاملاً متنامیاً لرحلة المطر من السماء إلی الأرض، یشعرنا بقوة هذا المطر وغزارته واندفاعه الذی بدأه بوصف البرق وومیضه الذی یلمع کلمع الیدین، أو مصابیح الراهب، وما کان هذا البرق إلا مبشراً ونذیراً بما یحمله سحابه من أمطار غزیرة کالطوفان، ما لبث أن انهمرت بشدة وقوة حتی غدت سیلاً عنیفاً جباراً اکتسح کل شیء وأطاح بالأشجار العظیمة وهدّم البیوت إلا ما قوی منها، وأحاط بجبل «طخیة» واستدار حوله فغدا کفلکة مغزل، وغشی جبل «أبان» بأفانین ودقِه وعمّه بالخصب حتی بدا کأنه شیخ کبیر قد دُثِر بکساء مخطط، ونزل بصحراء «الغبیط» وعمّها بالخصب وأنواع النبات والنور والزهر، فکأنما نزل بها تاجر یمانی فنشر ما فی عیابه من برود وأنواع المتاع والطیب، ووصف الأثر السلبی لهذا المطر الذی أحدثه سیله فی الحیوان، من سباع غرقی وعصم قد روعت وأنزلت مِن مآمِنها فی أعالی الجبالِ حیث یقول:

أحارِ تـری بَرقـاً کأَنَّ ومیضَه — کلمـعِ الیدَینِ فـی حُبی مُکَلل
یضیءُ سـناه أو مَصابیحُ راهبٍ — أَهانَ السَلیطَ فی الذبالِ المفتلِ
قَعَدْتُ لَه وصُحبتی بین ضارجٍ — وبیـنَ العذیـب بعد مـا متأمَّلِ

وأضحى يسُحّ الماءَ من كل فيقةٍ — يكبُّ على الأَذقانِ دَوْحَ الكنهبل
وتيماءَ لم يترک بها جذع نخلة — ولا أطماً إلا مَشيداً بجَندل
كأن طمّيـة المُجيمر غُـدوة — مِن السيل والغثاء فلكة مِغزل
كأنَّ أبانا فـى أفانيـن ودقـه — كبيرُ أنـاس فی بجـادٍ مزمل
وألقـى بصحراء الغبيـط بعاعَه — نزول اليمانی ذی العياب المخول
كأنَّ سـباعاً فيه غرقـى غَدية — بأرجائه القصوى أنابيش عُنصل
على قَطن بالشـيم أيمن صوبه — وأيسـره علـى السـتار فيذبلِ
وألقی ببسـيان مع الليـل بَركهُ — فأنـزل منه العُصمَ مِنْ كل منزلِ

(امرؤالقيس، ١٩٨۴م: ٢۶-٢۴)

أما عبيد بن الأبرص فهو من الشعراء الجاهليين الذين فتنوا أيضاً بوصف المطر وأبدعوا فيه وقدموا له صوراً رائعة موحية بالحياة والحركة والنماء؛ ففی قصيدة من قصائده التی وصف فيها المطر وصفاً عاماً، ثم عاد وخصصه، نجده يتبع من الخطوات المتعارف عليها فی وصف المطر، فرياح الصبا هی التی تدفع السحاب وتجمعه، والصبا من الرياح المحببة إلى العرب لرقتها ولأنها تجیء بالسحاب والمطر وفيها الری والخصب، وذلک لتقوم الرياح الشديدة بحلبه ودرّ مائه كما يحلب الأجير أو العبدُ النوقَ العشار، ويتجمع الرباب ويدنو ويشتعل برقه كاشتعال الحريق فی الغاب، نذيراً بسقوط مطره الذی ضاق ذرعاً به، فأخذت الرياح اليمانية تسوقه من خلفه لتستقبله رياح الجنوب فتحل عزاليه وتريق ماءه:

سقى الرَبابَ مُجَلْجِلُ الـ — أكنـاف لمـاحُ بُرُوقُـهْ
جَـوْنُ تكركـره الصَّبـا — وَهْنـا وتمريـهِ خرِيقـهْ
مَرْیَ العَسـيف عِشـارَهُ — حتى□ إذا دَرَّت عُروقهْ
وَدَنـا يضـیءُ رَبابُـهُ — غابـاً يضَرّمُـهُ حَريقـهْ
حَتـى إذا مـا ذَرْعُـهُ — بالماء ضـاقَ فما يطيقهْ
هَبَّـتْ لـه مِـن خَلْفِـه — ريـحُ يمانيـةُ تَسـوُقهْ
حلـتْ عزاليـهُ الجَنـو — بُ فثـجَّ واهِيـة خُروقهْ

(ابن الأبرص، ١٩۵٧م: ٩٠-٨٩)

ولو تتبعنا شعر الشعراء الجاهليين كلهم لندَرَ أن نجد شاعراً منهم لم يطرق إلى وصف المطر من قريب أو بعيد، فوصفهم لَهُ ينبع من ارتباطهم القوى به، فهو المعادل الحقيقى لحياتهم فى مجتمع يعتمد معظمه على مياه الأمطار، فهُم يتعاملون معه بحب ورغبة ورهبة وخوف منه فى هذه الصحراء المترامية الأطراف، خاصة إذا جاء مُدمّراً مخرباً، لذلک طبع وصفهم له بطابع الحيوية والصدق والحياة.

وكان جديراً بالذكر شرح معطيات المطر كالسحاب والرعد والبرق و... وذكر مسمياتها وما يتعلق بها من الأمثال والشواهد، لكنها لم تصنع الفرصة فى هذا المقال، ونكتفى بذكر بعض الشواهد من أبيات امرئ القيس وعبيد بن الأبرص:

من أجمل الأبيات فى وصف السحاب بيت لامرئ القيس:

ديمة هَطــلاءُ فيها وَطفُ   طَبَقُ الأَرضِ تحرّى وتدّر

(امرؤالقيس، ۱۹۸۴م: ۱۴۴)

قوله طبق الأرض غاية فى صفة عموم السحاب، أراد أنها على الأرض بمنزلة الطبق على الإناء.وأنشد عبيد بن الأبرص فى السحاب إذا كان أسود وأخضر يضرب إلى السواء فهو المحمل بالماء، الغزير الأمطار:

يا من لبرقِ أبيت الليلَ أرقبه   فى مُكفَهِرّ وفى سوداء مركومَهْ

(ابن الأبرص، ۱۹۵۷م: ۱۲۹)

وقد تفرد امرؤالقيس بصورة رائعة تجسم لمعان البرق وضياءه، فهو الذى شبّه لمعان البرق بحركة اليدين، واختار البرق الوليف لمناسبته لحركة اليدين، لأنه يلمع برقتين.

أحارِ تــرى برقاً كأنّ وميضه   كلمعِ اليدين فى حَبىٍّ مُكلل

يضىء سناه أو مصابيحُ راهبٍ   أهان السليط فى الذبال المفتل

(امرؤالقيس، ۱۹۸۴م: ۲۴)

وعبيد بن الأبرص هو الذى حرص على مراقبة البرق وتأمله، فَأرقَّ، وسهر، ولرؤيته واستطلاعه، يحدوه فى ذلک شوقه وترقبه لنزول الأمطار الغزيرة:

يا من لبرق أبيت الليل أرقبه   من عارض كبياض الصبح لمّاح

دانٍ مسفٍ فويق الأرضِ هيدبه   يــكاد يدفعه من قــام بالراح

(ابن الأبرص، ۱۹۵۷م: ۲۴)

التوظيف الشعری للمطر

أكثر الشعراء من توظيف صورة المطر فی موضوعاتهم المختلفة حتّى بدت واضحة جلية فی كل معالمها وجزئياتها وكانوا ينشدون فی ذلك صور الكمال والوصول إلى ما هو مثالی فی كل موصوفاتهم.

لذلك لابدّ لدارس صور الشعراء من التحليق معهم فی تصوراتهم المثالية للإنسان والكون والكائنات، حتى يمكن تحديد معالم صورة المطر، ومدى ما أفاد منها هؤلاء الشعراء فی إعلاء شأن تلك الموضوعات التی تناولوها بالوصف، والتعرف على قيمهم ومثلهم السائدة فی مجتمعاتهم القديمة، سواء فی تصورهم المثالی لجمال المرأة وحسنها، وعفتها وطهارتها، وكل ما يندرج فی ذلك من محاسن خلقية ومعنوية، وهذا هو موضوع الغزل، أو الإعلاء من القيم الرفيعة التی يتحلى بها ممدوحوهم، من كرم، وشجاعة ومروءة، ونبل، إلى آخر ما هنالك من قيم يتحلى بها الإنسان فی حياته فيمدح بها، وهذا هو موضوع المدح، كما يتحلى بها الإنسان بعد مماته فيرثی وهذا هو موضوع الرثاء، إضافة إلى أنه ينفتح المجال إلى أغراض متعددة من الشعر وظف الشعراء فيها صورة المطر خير توظيف مثل وصف الحيوان، والأطلال، والحرب.

ومن ذلك كلما يمكن القول أن الحياة والموت قد صُوِّرا فی المطر من خلال توظيف شعری تناوله الإنسان والكائنات من حوله فی حالتی: الثبات والحركة، والجمود والتطور.

ها نحن نرى الشاعر يتخذ من المطر وسيلة لاجتياز واقع الإنسان والتحليق فيما وراء الواقع، أو بمعنى آخر لايقتصر الشاعر على ما هو كائن فحسب بل يتجاوز ذلك إلى ما ينبغی أن يكون، وبذلك نجد الطموح إلى (النماذج العليا)، إذا صحّ التعبير، فهناك المرأة العادية تقابلها المرأة المثال أو النموذج فی جانبيها الحسی وغير الحسی، وهناك الممدوح والمرثی فی نموذجيهما الواقعيين ونموذجيهما المثاليين، ولذلك رسم الشاعر ـ من خلال ـ توظيف المطر ـ الصورةَ المثالية لأبطال مجتمعه أو (نماذجه العليا).

وإذا صحّ ذلك بالنسبة للعقلاء، فهو فی الوقت نفسه ينطبق على غيرهم من الحيوان والطل والحرب وكل ما لايعقل.

إن الشاعر هنا يتخيل (مجتمعاً مثالياً) أو إن شئتَ قلتَ يصنع فى خياله (مجتمعاً مثالياً) هو صورة ما يتمناه لأمته على مستوى الإنسان وعلى مستوى الكون والكائنات باعتباره شاعر قبيلة أولا ولغة قومية ثانياً، وفى ذلك كله لاتغيب عن الشاعر الثنائية التى تعنى أن «بضدها تتميز الأشياء»، تلك الثنائية التى تعنى أن لكل شىء نموذجه الأدنى ونموذجه الأعلى. والشاعر دائماً يتجه إلى النماذج العليا، ترى إلى أى حدّ وظّف الشاعر المطر من أجل رسم صورة المجتمع المثالى الذى يتخيله.

المطر وصورة المرأة

وجد العربى الجمال فى باديته متمثلا فى مصدرين أساسيين هما: الطبيعة والمرأة، وقد فتنه جمال الطبيعة الساحر فتغنى بصحرائها وحيواناتها، ووديانها، ورياضها، وسحابها، وبرقها، ورعدها، ومطرها، وغديرها، وسيلها.

وسَحَره جمال المرأة فتغزل بمفاتنها المادية والمعنوية، ووجد أن الصلة بين جمال المرأة وجمال الطبيعة صلة كبيرة، فالمرأة بمفاتنها الجميلة ترمز إلى ما فى الطبيعة من إبداع وسحر وجمال لذلک تجلت الطبيعة فى تشبيهاته وأوصافه للمرأة.

وظاهرة المطر من أهم الظواهر الطبيعية التى أثرَت فن الغزل من حيث التصوير والتعبير، ومن حيث المعانى والصفات. والمطر متغلغل فى نفس العربى يرتبط معه بعلاقة مصيرية أساسها الحياة والموت، الخصب والجدب، الغنى والفقر. والمرأة كالمطر رمز للخصب والحياة والنماء، وشوقه وحبّه لها كشوقه وحبّه للمطر، لذلک استعار لوصفها أجمل ما فى فكرة المطر من معان، فصارت كل مقارنة لديه تستمد أصولها من تقارب أو تشابه أو تناسب بينها وبين المطر.

وسنطلع هنا على استفادة امرئ القيس وعبيد بن الأبرص من ظاهرة المطر وتوابعها فى غزلهما وكيف طوّعا الصور والأخيلة المستمدة من هذه الظاهرة فى تشكيل صورة المرأة المثالية التى أحباها. ونكتفى بأنموذجين بسبب ضيق المجال.

الريق والخمر والمطر

تشكل الخمر وماء المطر صورة أخرى من صور الريق التى عنى الشعراء بها فى تشبيهاتهم وأوصافهم لريق المرأة، فجمعوا بين «المدام وغريض المزن» و«العانية وصوب الغادية» و«الخمر وماء الندى» و«المدام وماء السحاب» وما إلى ذلك مِن التركيبات والأوصاف، فامرؤالقيس يعتمد فى وصفه على حصر المعنى الكثير فى اللفظ القليل، فريق محبوبته خمر تسكر، وسحاب يمطر، وعطر يعبق، ولا شك أنه أراد من هذه التشبيهات المتلاحقة التدليل على طيب ريق صاحبته:

كأن المــدام وصوبَ الغما　　　م وريح الخزامَى ونَشر القطرْ
يعــلّ بــه بــرد أنيابهــا　　　إذا طرب الطائر المســتحرْ

(امرؤالقيس، ۱۹۸۴م: ۱۵۸-۱۵۷)

ويتجلى الأثر النفسى للريق فى صورة عبيد بن الأبرص، الذى شبه ريق محبوبته بمدامة مشعشعة ممزوجة بماء سحاب يسير شاربها مختالاً مرخى الإزار لشدة أثرها فيه، ويؤكد قيمة تلك الخمر المحفوظة فى أباريق الفضة، بما تدّره من ثمن بريح لبائعها ليوحى إيحاءً خفياً بقيمة المرأة وعزتها:

أمن أم سلم تلك لا تستريح　　　وليــس لحاجات الفؤاد مريح
إذا ذقتُ فاها قلتُ طعمُ مدامة　　　مشعشــة ترخى الإزار قديح
بماء سحاب فى أباريق فضة　　　لها ثمــن فى البائعيــن ربيح

(ابن الأبرص، ۱۹۵۷م: ۳۰-۲۹)

الحيوانات والمطر

المطر هول الوجه الساكن من الطبيعة الذى تغنى به الشعراء على امتداد العصور واختلاف فتراتها الأدبية والسياسية؛ وهناک وجه آخر للطبيعة تربّع على عرش الذاكرة الأدبية، وخط معالمه فى الإنتاج الشعرى، هذا الوجه، حىّ نابض يعيش مع الإنسان ويتفاعل معه منذ بدايته. إنه هو الحيوان، هذا الكائن الحّى الذى ارتبط مع العربى فى صحرائه برباط قوى أساسه تبادل المنفعة، وإن كان اعتماد أحدهما على الآخر يفوق

اعتماد الثانی. لذلک أحب الإنسان العربی الحیوان، وانساب وصفه علی لسانه انسیاب قطرات المطر التی عشقها، فتتبع هذا الحیوان فی حیاته وطرق معاشه وخطرات نفسه، وعاشر الألیف منه، وطارد الوحشی الشارد.

وحین صور الشعراء الحیوان، وجَسّموا معاناته مع الطبیعة الساکنة المتمثلة فی ظاهرة المطر، لم یقصدوا فقط بیان مدی التفاعل بین وجهی الطبیعة المختلفین، ولکن أسقطوا معاناتهم فی هذه الحیاة علیها لیرمزوا إلی مشاعر کثیرة تجتاحُ نفوسهم. وهنا تذکر بعض النماذج فی هذا الموضوع من أبیات الشاعرین امرئالقیس وعبید بن الأبرص.

فامرؤالقیس هو الذی یشبه سرعة فرسه وانطلاقه خلف ثور الوحش بغیث العشی الغزیر الأقهب الذی یمیل لونه إلی الکدرة مع البیاض ونعته أیضا بالمتودق، والمتودق من الودق وهو الشدید من المطر، لیوحد بینهما فی السرعة والانطلاق:

وأدرکهـن ثانیاً مـن عنانه   کغیث العشی الأقهب المتودق

فصاد لنا ثوراً وعیراً وخاضباً   عداءً ولم ینضَح بماءٍ فیعرق

(امرؤالقیس، ۱۹۸۴م: ۱۷۴)

وفی رحلة صید أخری ینطلق فرسه کشؤبوب العشی، بوابل من الجری المتواصل مثیرا عاصفة من الغبار، الذی غطی کل شیءٍ أمامه کأنه الدخان:

وولی کشـؤبوب العَشیِّ بوابل   ویخرجن من جعدٍ ثراه منصب

(نفس المصدر: ۵۰)

وفی تشبیه سرعة ناقته یشبه بالجهام، وهو السحاب الذی أراق ماءه فأخذ یسیر سیراً خفیفاً سریعاً تحدوه الریاح فی أفق السماء، یقول:

تروح إذا راحَت رَوَاحَ جَهامةٍ   بِإثـر جهـام رائـح متفرقِ

(نفس المصدر: ۱۷۰)

وأمّا عبید بن الأبرص فجمع فی تصویره لقصة ثور الوحش بین خیر المطر وشرّه، فقد صّور الثور وهو ینعم بطیب العیش فی وسط روضة غناء جادها الربیع بولیه، فغزرت وطال نبتها وفاحت بالعبیر والزعفران، إلا أنّ هذا النعیم والصفاء لم یدم، فقد فاجأت هذا الثور لیلة سوداء مظلمة من لیالی رجب الباردة، بأمطارها الغزیرة التی أخذت تسحّ علیه

سحّاً، ففرّ إلى شجرة الآلاء ليحتمى من مطرها وبردها وكل عضو منه يرعد:

وكأن أقتــادى تضمن نِســعَها　　من وحــشِ أورال هبيط مفردُ
باتــت عليــه ليلــة رجبيــة　　نصبا تســحُّ المــاء أو هى أبرد
ينفــى بأطراف الألاءِ شــفيفها　　فغدا وكلّ خصيــل عضويرعَدُ
كالكوكب الدُرى يشــرقُ متنهُ　　خرصــا خميصا صلبُــهُ يتأودُ
فى روضة ثلــجَ الربيعُ قرارَها　　مَوليــة لــم يســتطعها الـرُّوَّدُ
وبــدا لكوكبها صعيــدُ مثل ما　　ريحَ العبيرُ على الملاب الأصفد

(ابن الأبرص، ١٩٥٧م: ٤٤-٤٣)

النتيجة

بعد كل ما تقدم من استقراء وبحث لموضوعنا هذا وبعد ارتياد دروبه الشاقة وهالاته الغامضة، حان وقت اجتناء قطوفه وإن لم تنضج بعد وتكتمل.إن نظرة عامّة لما سبق تؤدى إلى النتائج والآراء التالية:

١. إن وصف الطبيعة فى الأدب العربى وصفاً قديماً، والشعراء قاموا بوصف البيئة الصامتة والمتحركة فى أشعارهم ووصف الطبيعة الصامتة رائج عند شعراءنا الثلاثة أيضاً وكلهم على مستوى واحد.

٢. إن اهتمام الشعراء بالماء اهتماماً بالغاً وقاموا بوصف الماء فى جميع صفاته وتشبيهاته، ونجد الشعراء كلهم مهتمين بهذا الأمر وأتوا بأبيات كثيرة فى هذا الموضوع. فامرؤالقيس وعبيدٌ أتيا بوصف الماء وذكره أكثر اتساقا من النابغة الذبيانى، لكنّ النابغة رغم أنه وصف الماء وشبهّه أيضاً، قام بهذا الأمر فى أبيات متفرقة ونرى هذه الأبيات فى ديوانه من هنا وهناك.

٣. إن السحاب والرياح والرعد والبرق من معطيات المطر فهى حظيت بنصيب وافر فى التوصيف والتشبيه فى أشعارهم، لكن النابغة الذبيانى، فهو قام بذكر السحاب والرياح ولم يذكر الرعد والبرق إلا خلال توصيفاته للسحاب وشأنه فى هذا الموضوع ليس كشأن صاحبيه، فهما امتازا الرعد والبرق من السحاب فى كثير من أبياتهما. والشعراء

کلهم قاموا بذكر الرياح وتوصيفاتها، لكنهم لم يذكروا شيئاً مِن الدبور وهى ريح تقابل الصبا ومهبّها جهة المغرب.

۴. إن أكثر الأوصاف للمطر وتشبيهاته، متشابه لدى هولاء الشعراء، فى الاسم وفى الصورة وفى التركيب، ونجد التفاوت قليلا فيها، وأكثروا بتوظيف صورة المطر فى موضوعاتهم المختلفة حتى بدت واضحة جلية فى كل معالمها وجزئياتها، وكانوا ينشدون فى ذلك صور الكمال والوصول إلى ما هو مثالى فى كل موضوعاتهم.

۵. إنّ ذكر المواضع التى تجمع فيها الماء كثير فى دواوين الشعراء الثلاثة لكن المواضع التى يجرى فيها الماء ليس لها شأن كالمواضع التى يجتمع فيها الماء.

فلها ذكر قليل عند هؤلاء الشعراء ولاسيما عند عبيد بن الأبرص والنابغة الذبيانى.

نجد أبياتاً كثيرة فى ذكر البحر والنهر وتوصيفاتهما فى دواوين الشعراء هؤلاء، لكنهما لم يحظيا بنصيب وافر كالماء والمطر. فهؤلاء الشعراء ألموا بذكر الماء والمطر أكثر من إلمامهم بالبحر والنهر.وأخيرا استطاع هذا البحث أن يثبت أنّ وصف المطر يشكل جانباً هاماً من جوانب الشعر العربى عبر العصر الجاهلى، هذا الاهتمام المنبثق من أهمية المطر فى حياته فى شبه الجزيرة العربية التى يغلب عليها الجفاف وندرة المياه . وأنّ صورة المطر من أهم العناصر التى شكلت شعرهم وتصاويره الفنية والأدبية.

المصادر والمراجع

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

القرآن الكريم.

ابن الأبرص، عبيد. ۱۹۵۷م. *ديوان.* تحقيق وشرح الدكتور حسين نصار. مصر: مطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده.

ابن أوس، أبوزيد سعيد بن أوس الأنصارى. ۱۹۱۰م. *كتاب المطر.* بيروت: المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين.

ابن دريد، أبوبكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدى. ۱۹۶۳م. *كتاب وصف المطر والسحاب وما نعته العرب الرواد من البقاع.* دمشق: مطبوعات المجمع العلمى العربى.

ابن سلام، محمد بن سلام الجمحى. ۱۹۷۴م. *طبقات فحول الشعراء.* مطبعة المدنى.

ابن منظور، أبوالفضل جمال الدين محمد بن المكرم الأنصارى. لاتا. *لسان العرب.* مصر: دارالمعارف.

امرؤالقيس. ١٩٨٤م. *ديوان*. تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم. مصر: دارالمعارف.

العسكرى، أبوهلال الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعيد. ١٣٥٢ق. *ديوان المعانى*. لانا.

الميدانى، أبوالفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم النيسابورى. ١٩٥٥م. *مجمع الأمثال*. تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد. مطبعة السنة المحمدية.

النويرى، أحمد بن عبدالوهاب. ١٩٢٩م. *نهاية الأرب*. مصرة دار الكتب المصرية.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی